

عندما تكون اللغة العربية في خطر

الكاتب



ناصر زيدان

د. ناصر زيدان

اللغة الأكديّة السامية التي انبثقت منها اللغة العربية، هي أقدم لغات الأرض المكتوبة على الإطلاق، والعربية هي الأولى بين اللغات السامية، وحافظت على تألقها واستمراريتها، بينما اندثرت قريناتها الأخرى مثل، اللغة البابلية واللغة الآشورية واللغة الإيبلاوية واللغة الآدومية واللغة السامرية. وكانت اللغة العربية عروس اللغات العلمية على امتداد فترات طويلة من الزمن، واشتهرت عن غيرها بكفاءتها في صياغة صور الشعر الجميلة.

والعربية التي عرفها العالم منذ القرن العاشر قبل الميلاد في شرق الجزيرة العربية وفي فلسطين؛ أغناها القرآن الكريم (قرآناً عربياً غير ذي عوج - 28) وصقل تحريكاتها ووسّع من مساحة انتشارها، وغدت بعده مرجعاً تستند إليه شعوب كثيرة، ويتحدث بها أكثر من 700 مليون إنسان على امتداد الكرة الأرضية.

أهم مطبعة في مدينة حيدر آباد الهندية، كانت المطبعة العربية، وكانت العربية تُستخدم على نطاق واسع في باكستان وبعض مناطق الصين وفي وسط آسيا، حتى أن الكاتب والشاعر الهندي الشهير فضل الحق خير آبادي (توفي عام 1797) لم يفقه كتابة الشعر إلا باللغة العربية، وكانت كتاباته مرجعاً في الأدب والشعر والعلوم الأخرى على مدى عشرات السنين.

الخطر يدهم اللغة العربية اليوم، وهي تتعرّض لحرب ضروس من جبهات عديدة، تشبه الحروب التي تستهدف الأمة العربية من كل حذب وصوب. وهي تُنازع للبقاء على قيد الحياة وحيدة متروكةً لقدرها، لا مُعين لها، لولا بعض المبادرات الأصيلة التي تطفو على سطح مساحة التربية والثقافة في بعض المدن والعواصم العربية، ومنها إعلان 18 ديسمبر/كانون الأول اليوم العالمي للغة العربية، أمّا آخر المبادرات القيّمة ذات الصلة فكانت، إطلاق «وسام القراءة» في كلية العلوم الإنسانية في جامعة الإمارات العربية المتحدة لتعزيز قراءة اللغة العربية.

مما لا شك فيه بأن تراجع مستوى اللغة العربية، ناتج عن تراجع مستوى الوعي السياسي في البيئة العربية برمتها، وهذه

البيئة ساهمت في إشاعة نوع من التكابر على لغة الأمة، وجعلت من الحديث عنها؛ مسألة لا تدعو إلى الانصات، أو إلى التشويق، وأصبح الابتعاد عن استخدامها في بعض المنتديات، سمة عامة، تُشبه الهروب إلى الأمام من واقع مرتبك إلى واقع آخر أكثر استقراراً، أو أكثر تطوراً، وهذا الأمر يحدث في معظم البيئات العربية، بما فيها عند المجموعات المُتشددة قومياً.

وقد تحوّل تعلّم اللغات الأجنبية وهي مسألة ضرورية جداً في عالم اليوم إلى انقلابٍ على لغة الأمة. وكانت أغلبية السياقات التي تحصل فيها عملية تدريس الإنجليزية، تنمُّ عن خطط لاستبدال لغةٍ بلغةٍ أخرى، مما همّش إلى حدٍ بعيد مكانة اللغة العربية، وتطور الأمر في بعض المجتمعات العربية إلى اعتبار أن اللغة العربية «لزوم ما لا يلزم» أو إنها لغة لا حاجة لها في سياق سيرورة الحياة العامة والحياة العملية، وإنها أي العربية لغةٌ مُعقّدة، وفيها الكثير من التحريكات القاسية على السمع، وتحملُ المعاني المُتعددة التي تُربكُ مُستخدميها.

بطبيعة الحال، فإن تلك المقاربة تحمل الكثير من التجنّي والتشويش على العربية، وهي تأتي في سياق خطةٍ مُمنهجة لتدمير العربية شيئاً فشيئاً، وتُساهم الإغراءات الغربية عبر وسائل الاتصال الحديثة في تلك الخطة التدميرية، وابتداع كتابة الكلمات العربية بالأحرف اللاتينية عبر وسائل التواصل الاجتماعي، جزءٌ لا يتجزأ من المشروع التدميري الذي يطال لغة الأمة، علماً أن هذا الاستخدام للأحرف اللاتينية لا حاجة له على الإطلاق كون كل أجهزة الاتصال الهاتفية، وأجهزة الكمبيوتر الحديثة، فيها أحرف عربية، ومُصنّعة وفقاً لأحدث التقنيات التي تحفظ للعربية دورها ومكانتها، بما في ذلك وسائل الترجمة الفورية الحديثة عندما تقتضي الضرورة ذلك، كما أنها اللغة السادسة المعتمدة في منظمة الأمم المتحدة، وهذه المنظمة الدولية التي تعني كل العالم، تفرض ترجمة كل وثائقها إلى العربية، وتستخدمها كلغة رسمية منذ بداية سبعينات القرن الماضي.

وما يثيرُ مخاوفنا على لغة الأمة، هو المبالغة في تهميشها في المدارس والجامعات العربية، وتكاد أقسام اللغة العربية في كليات الآداب، مُقتصرة على طلاب من جنسيات غير عربية يرغبون بتعلّم اللغة العربية، بينما يتزايد أعداد الطلاب العرب في أقسام اللغة الإنجليزية واللغات الأجنبية الأخرى. وقال لي أحد الزملاء من أساتذة الجامعة اللبنانية يُدرّس اللغة العربية: إن قراءة بعض الشعر العربي في قاعة المحاضرات أصبح مدعاةً للسخرية في بعض الأحيان، وأن طلاب الأدب العربي يستحيون باختصاصهم، ولا يجاهرون به، في إحياء على أن الأمر «موضة قديمة» تُشبه أصناف الثياب التي يجب تبديلها.

إن ضعف اللغة، هو بكل تأكيد ضعفٌ للأمة، ولا يمكن للشعوب أن ترتقي بلغة غيرها. فاليابان على سبيل المثال: تستخدم كلمات اللغات الأجنبية على إنتاجها الصناعي الذي يغزو أسواق العالم، ولكنها تستعمل اللغة اليابانية في كل مندرجات الحياة العامة في اليابان، بما في ذلك المدارس والجامعات.